مساحة خضراء

هل الكتاب في خطر..؟!

■.. المعرض الدولي للكتاب المنعقد في المغرب العربي في مدينة كازبلانكا الدار البيضاء تشارك فيه ستون دولة عربية وأجنبية في مشاركة فعالة وبحضور كبير للمثقفين المغاربة والعرب.

انعقاد مثل هذه المعارض الثقافية سنوياً في دولة أوروبية أو عربية بين التواصل والارتباط بالكتاب الذي يعاني من تنافس مع وسائل معرفية أخرى مثل الانترنت والصحافة.

ودعونا نسأل أنفسنا: هل حقيقة أن الكتاب في خطر؟ وأن الناس قد سرقهم التلفزيون والراديو والانترنت وكل وسائل الاعلام..؟!

يقولون لك في عصر تدفق المعلومات.. من سياسة وثقافة وعلوم وفنون.. قد جعل الناس لا يقبلون على الكتاب ولا يعشقونه.. كما كانوا في السابق قبل أن يتم اكتشاف وانتشار الانترنت والقنوات الفضائية.

هل ينقرض الكتاب وتتوقف المطابع ويتوقف العقل الانساني عن الابداع..؟!

الاجابة تبدو أكثر واقعية.. سيظل الكتاب يرافق الانسان الى ما شاء الله.. وستظل المطابع تدفع بخلاصة الفكر الانساني الى المكتبات والأسواق.

الانسان وفكره هو المنتصر على الرغم من تطور وسائل الاعلام وتدفق المعلومات.

الكتاب هو صديق الانسان، ورفيق رحلته الطويلة في هذه الحياة، سيبقى الكتاب ما بقي الانسان.

فؤاد عبدالقادر

مبادئ إنسانية:

بين الرغبة في الوجود وسلطة الإيحاء الذاتي

يحكى أنه كان هناك رجل هارب من وجه العدالة ، وكان الحكم قد صدر عليه بالإعدام وعندما كان يبحث عن مكان للاختباء وجد قطاراً فاستقله، ولم يجد مكاناً يختبئ فيه إلا ثلاجة ذلك القطار، وبينما كان بداخلها ظل يحدث نفسه بأنه سيموت وأنه سيتجمد من البرد، وظل يردد هذا الكلام مراراً على نفسه ويقول.. أنا سأتجمد ... أنا سأموت... أنا سأتجمد .. أنا سأموت.

وعندما جاء الصباح وُجِدَ ذلك الرجل ميتاً، وبعد تشريح جثته وجدوا أن جميع أعصابه قد تجمدت وأن سبب وفاته هو شدة البرد.

ليس المهم كيف مات ذلك الرجل، بل المهم هو أن ثلاجة ذلك القطار كانت معطلة..؟!

– ما الغاية من هذه الحكاية؟!

سنقسم هذه الحكاية إلى محطتين وسنقوم بتحليل كل محطة على حدة وفقاً لنظريات ورؤى فلسفية ومنطقية ونفسية..

هايل علي المذابي

● لنبدأ بالمحطة الأولى وهي هروب ذلك الرجل من وجه العدالة وتحوله من إنسانٍ عادي مسالم إلى مجرم خطير؟!!

إن الرغبة الدائمة الملحة على الإنسان هي رغبة الوجود، وكل مغامرات الإنسان الطويلة ليست في أقصى غاياتها إلا طريقاً لتحقيق وجوده وإثبات ذاته ومن ثم لإدراك معنى هذا الوجود ، وقد أخذت هذه المغامرات أشكالاً مختلفة ، فهي تتمثل مرة في البحث عما نسميه الحقيقة وأخرى في البحث عن الله وثالثه في محاولة تفهم ما النفس، وإذا نحن ترجمنا هذه المحاولات في إطار أعم أمكننا أن نتمثلها في علاقة الإنسان بالكون، وعلاقته بالله وعلاقته بالإنسان نفسه، ويتفرع عن هذه العلاقات كل المواقف الثانوية من النظر في الحياة والموت، في الحب والكره، في الخلود والفناء ، في الشجاعة والخوف، في الخصب والإمحال ، في النجاح والفشل، في العدل والظلم ، في الفرح والحزن، وكل هذه المعاني مستقرة في الضمير الإنساني وقد استقرت فيه منذ وقت مبكر ، منذ أن تبلورت التجربة الإنسانية في العقيدة الدينية، لقد استقرت في ذاكرة الإنسان التي تكونت عبر العصور وانطبعت آثارها – من ثم – في عاداته المجتمعية..

.. يقول محمد تقي المدرسي أحد المناطقة العرب:

● «إن السؤال الكبير الذي يرتسم أمام الفلاسفة والعلماء معاً هو :البحث عن جذر كل غريزة في نفس الإنسان ، وهل أن لكل واحدة منها جذراً مختلفاً عن الأخرى أم أن الغرائز تلتقي عند جذر واحد..؟!

إن النظر العميق يهدي إلى وحدة الغرائز السيكولوجية ، بمعنى أنها نابعة من جذر واحد هو حب الذات، ورجاء الخير لها والخشية عليها من الشر ، بيد أن هذه الوحدة السيكولوجية لاتتنافى مع الاختلاف الفسيولوجي، والبيولوجي لها ، بل نستطيع أن نقول: إن كافة الشهوات تعود إلى غريزة واحدة ، فهناك مثلا حب السيطرة وطلب الشهوة .. والحياء من الناس ، واتباع العظماء، واتباع الوالدين والاقربين.. إنها تعود إلى ذات الغريزة والمجتمع الواحد ، إذ ما من عمل غريزي يقوم به البشر ، إلا بسبب اعتقاده بأنه يقوم بصورة مباشرة أو غير مباشرة بإشباع إحدى غرائزه الأولية... والمرء يتبع جماعته خوف تفرده- لدى انفصاله عنها- وبالتالي حرمانه من منافع الجماعة ، ورجاء المزيد من ذلك..!!

والرجل يتبع نهج الصراع الطبقي ضد طبقة أخرى خوفاً من حرمانه من أكله وأمنه ورجاء في الحصول على المزيد من إشباع الجوع وتوفير الأمن..».

● من هنا نستخلص أن المسألة هي مسألة إحساس بالإنتماء ، وتحقيق وجود وإثبات ذات، وتأكيداً للكلام المذكور سابقا سنضرب مثلاً وهو الشاعر عنتره بن شداد الذي قام بكل بطولاته ومعاركة سعياً لرضى قومه عنه ومحاولة منه لتحقيق مكانة له بين قومه، وبغض النظر عن الاسباب فالشاعر هذا رأى أن إثبات ذاته وتحقيق وجوده لا يمكن أن يتم إلا بانضمامه إلى القبيلة- وهذا المثال يوافق ما قاله المؤلف محمد المدرسي وقد أوردناه آنفاً-..

ولكن الأمر قد يصبح عكسياً ، فإحساس الفرد باللا انتماء وهو بين قومه وعشيرته يدعوه إلى الإنفصال والتمرد عن هذه القبيلة أو العشيرة أو المجتمع..!!

لماذا؟! بل من أجل ماذا؟!

إنه بكل تأكيد من أجل إثبات الذات، وقد تختلف الطريقة أو المنهج الذي يسلكه الأفراد لتحقيق ذواتهم من جيل إلى جيل ومن شعب إلى شعب ومن فرد إلى فرد حسب الثقافة التي تلقاها الفرد، وحسب العادات والتقاليد والبيئة والظروف التي تحيط به، فالفرد قد يلجأ إلى القتل والسطو والنهب وقطع الطريق، وهناك من يلجأ إلى الكلمة للتعبير عن حالته النفسية ، عن أحاسيسه وما يعتلج بداخله، ولنأخذ مثالاً مغايراً لحالة عنتره، أحد الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، الشنفرى ، هذا الشاعر حالته مغايرة لحالة عنتره تماماً ، فقد رأى أن السبيل الوحيد لإثبات ذاته هو الإنفصال والتمرد عن القبيلة شأنه في ذلك شأن بقية أفراد المجموعة التي كان يتزعمها عروة بن الورد،

يقول الشنفرى في لاميته:

ولي دونكم أهلون سيدٌ
عملّس وأرقط زهلول وعرفاء جيالُ

ولنأخذ مثالاً آخر :

قال الأحمر السعدي أحد قطاع الطرق في العصر الأموي وكان لصاً فاتكاً: عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوّت إنسانٌ فكدت أطيرُ

فلنعمل النظر جيداً في هذه الأبيات سنجد إن إحساس الشاعر باللا انتماء والغربة بين قومه جعله يستعيض بالحيوانات التي وجد الأنس وأحس بالأمن معها عن بني جنسه الذين استوحشهم ، وشأن هذا الشاعر شأن بقية الشعراء الصعاليك والذين أعلنوا انفصالهم وتمردهم عن قبائلهم لإثبات وتحقيق ذواتهم..

● والكلام الذي أوردناه وهذه النماذج والأمثلة ما هي إلا تمثيل للنفس البشرية ، فالأفراد سواء كانوا عرباً أو غير عرب، جبلوا على غريزة واحدة والآخرون في هذا العالم ما هم إلا نحن ولكن في صور مختلفة.. وإن كان هناك اختلاف فهو في الثقافات..

● ولو عدنا الآن إلى نقطة البداية أو إلى محطتنا الأولى ، لوجدنا سؤالاً لا يزال تائهاً وهو : ما الدوافع : ما المسببات التي حوّلت ذلك الرجل إلى مجرم؟!

أليس المجتمع والبيئة التي تحيط به هي ما جعلته يتحول إلى مجرد حقيقي؟!

قد يعترض البعض على الرأي هذا.. ويقول كيف؟

أن إحساس الرجل بالضياع وباللا انتماء وسط مجتمعه وفقدانه لحريته واستقلاله برأيه ومعاملة هذا المجتمع الذي يقطن فيه وهذه البيئة التي تحيط به على أنه «لا إنساني» هو ما جعله يتمرد ويقوم بجرائمه التي قام بها ليثبت ذاته ويحقق له مكانة بين مجتمعه حتى ولو كانت بالإجرام..

● وللتفصيل نسوق كلاماً من كلا م أحد فلاسفة العصر الحديث ورواد الحرية «جان بول سارتر» صاحب الخطوط الفلسفية الثلاثية «الحرية ، المسئولية، الالتزام»..

... إن الإنسان يستطيع إثبات وجوده عن طريق الفعل، فالفعل هو محاولة لتغيير الحالة الراهنة لتحقيق حالة أخرى مغايرة، ففيه إلغاء لشيء وإثبات لشيء آخر وليس أي سلوك يسلكه الإنسان فعلاً، فقد نرى الكرسي يقع أو إنساناً ينزلق، فهذا سلوك وليس فعلاً لأن الفعل قدرة على تغيير أوضاع تؤثر في عالم الموجودات ، وقد يضيق الفعل وقد يتسع ، قد يكون تحية عابرة، وقد يكون معركة تقتل فيها مدينة بأسرها وسارتر لا يقيم قيمة الفعل بما يترتب عليه من نتائج وإنما المهم عنده كما هو عند سابقه «كانط» أن يصدر الفعل عن حريتنا وعن إرادتنا،فالفعل الإنساني يفترض الحرية ، وهو تعبير عنها، وينتهي سارتر إلى القول بأن الحرية ليست مجرد صفة للوجود الإنساني بل إنها قوام هذا الوجود، وقد يحاول الإنسان أن يهرب من حريته ويسعى لإيهام نفسه بأنه موضوع وشيء كباقي الأشياء وحتى في هذه الحالة أي عدم وعيه بحريته وتخليه عن إرادته فإنما يكون حراً ، وذلك لأنه اختار عدم الاختيار..

● إنه الكائن المحكوم عليه بالحرية وهو لا يستطيع أن يهرب من حريته ، لذلك يتسع مفهوم الحرية عند سارتر ليشمل الشعور والعاطفة بالإضافة إلى الفكر والوعي وليس هناك شروط لتحديد أي الافعال خير من غيره إلا مقدار صدورها عن حرية فاعلها، وليس هناك أسوأ من حالة النكوص عن المسئولية وتخلي الذات عن حريتها حين تقبل كل ما هو معطى لها جاهز..

● وبعد هذا الاستطراد ننتقل إلى المحطة الثانية من الحكاية وهي موضوع موت ذلك الرجل..

إن الرجل ظل يحدث نفسه بأنه سيموت وبأنه سيتجمد من البرد ولم يكن يعلم بأن ثلاجة ذلك القطار لم تكن تعمل أصلاً..؟!!

ماذا يسمى هذا السلوك ، أو كيف نفسر هذا الشعور علمياً ؟! يسمى هذا السلوك في علم النفس «بالايحاء الذاتي» وفي المنطق «الخداع الذاتي» ويطلق عليه الفيلسوف سارتر «خداع النفس» أو «سوء الطوية» وقبل هذا وذاك قال الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم - معلم المناطقة والفلاسفة والنفسانيين -في الحديث «إذا حدثت النفس خالياً فاكذبها» أي من أجل ألا تثبط من عزيمتها ، وفي هذا نستشهد يقول لبيد بن أبي ربيعه..

واكذب النفس إذا حدثتها
إن صدق النفس يزري بالأمل

ويقول نافع بن لقيط:

وإذا صدقت النفس لم تترك لها
أملاً ويأمل ما اشتهى المكذوب

● من هنا نجد أن العامل النفسي ومسألة الايحاء الذاتي من أهم الأسباب لنجاح الفرد وفشله، وسعادته وشقائه..

فالبائس لا ينبغي عليه أن يقول لنفسه أنه بائس والفاشل كذلك لا ينبغي عليه أن يحدث نفسه بأنه فاشل بل العكس من ذلك، فالكذب على النفس مسألة هامة قد يجهلها الكثير من الناس، وحتى يستطيع الفرد منا أن يتخطى الصعاب والعوائق، وينتصر على لحظات الضعف التي تنوبه بين الفينة والأخرى..عليه أن يكذب نفسه إن حدثها،،

ونحن نعلم أن الكذب محرم قطعاً وهذه قاعدة دينية وأخلاقية ولكن شذّ هذا الكذب «أي الكذب على النفس» عن هذه القاعدة فصار هذا الكذب كذباً حلالاً ، ومثله ومثل هذه القاعدة ، كمثل السحر والذي شذ عن قاعدته السحر الحلال..

وليس مهماً ما كنا.. وليس مهما ما نكون... بل المهم هو أن نكون..

و ماذا سنكون ...؟!